

ثمرة اليوم من غرسة الأُمس

الكتاب الذي نقرأه اليوم كتبت فصوله ، او الكثير منها ، صيف العام ١٩٨٢ .
هذه الحال من التمزق والانقسام التي نعيش ، ولبنان المجتمع والدولة والوطن على شفير الهاوية هي ثمرة
الغرسة التي زرعت ايام الاجتياح الاسرائيلي الماحق ، ايام حصار بيروت الخائق ، ايام الارهاب الغاشم الذي
سلطته قوة الاحتلال وحلفاؤها من الداخل على الارادة الوطنية لتستوي على مفتاح القرار في قمة السلطة وقد كان
لها ما شاءت ، أو هكذا بدا عندما انتخب رئيس جديد للجمهورية على غير توافق بين اللبنانيين ، ففرض حالة
غالب ومغلوب لم تكن قائمة ، وانما اصطنعها الاحتلال وبسط نتائجها الموهومة على الارض مع اعوانه .
ليس من الغريب وقد كان ما كان ان نصل الى ما نحن عليه الآن . فنحن لم نكن نتوقع غير ما نواجه .

كانت الازمة قد بلغت من العمر سبعا ، وكانت طيلة تلك السنوات قبلا تدور داخل حلقة النظام ، اي
انها كانت تتجلى في صراع محتدم حول تطوير النظام ، تحت عنوان اصلاحه ، من داخله . فاذا الازمة تشب على
الطوق ، على طوق النظام ، للمرة الاولى مع انتخاب رئيس جديد كان مجرد مجيئه على نحو ما جاء تعبيرا عن
اختلال في التوازن تولد عن الاحتلال ، وكان الاحتلال ميمتلا لانه ضرب حالة توازن دقيق ومرهف قام عليه النظام
منذ كان لبنان الاستقلال .

كنا في تلك الايام السود نحذر ، واليوم نعيش واقع ما حذرنا من احتمال وقوعه . فعلام العجب ؟
كنا نحذر من مقبة فرض رئيس حزبي ، يمثل طرفاً في نزاع غير محسوم ، على وحدة لبنان وشعبه ، فلماذا
نستغرب واقع الانقسام ونتائجه ؟

كنا نحذر من ان تغليب من لم يكن غالباً ، على من لم يكن في حال من الاحوال مغلوباً ، لن يكون من شأنه
سوى تعميق اسباب التفسخ في المجتمع وتأجيج نار الصراع بين اطرافه . فعلام العجب اليوم إذن ؟

كانت بيروت الوطنية تتعرض لعنت شديد تحت وطأة حصار خانق ضربته القوات الاسرائيلة الغازية حولها
صيف العام ١٩٨٢ ، وكانت ميليشيا « القوات اللبنانية » في بيروت الاخرى ، بقيادة بشير الجميل ، تعقد
الخصام مع الغزاة في احكام الطوق على العاصمة المقاومة ومن فيها . فكان الوافد الى المدينة المحاصرة يجد من
ابناء جلدته من يعترض سبيله على المعابر وينتزع منه قارورة ماء يحملها او رزمة خبز او بعض المؤن .

كانت بيروت تعيش تلك الحال من الضنك عندما بدأت تلوح بوادر حلول تفوح منها روائح التغليب لفریق على آخر . كنت وعائلتي بين المحاصرين وقد أخذنا نسمع للمرة الاولى عن احتمالات تنصيب بشير الجمیل خلیفة للرئيس الیاس سرکیس عند انتهاء ولايته ، وعن احتمالات اسناد مهام امنیة استثنائیة للجیش اللبنانی فی صیغ تحمل فی ثنائها ملامح عسف وقهر .

أیدنا انزال الجیش وانما فی صیغة مدروسة ولمهمة واضحة وعادلة . فأبوا دخوله بیروت الوطنیة الا دخول الفاتحین .
همسنا رأینا فی آذان المسؤولین محذرين من الشطط فی استخدام الجیش اللبنانی . ثم أعلننا رأینا علی الملاء عندما شعرنا ان الأذان لم تكن صاغیة ، فقلنا فی حیثه (١٩٨٢/٧/٥) :

نحن مع نزول الجیش اللبنانی للقیام بمهام امنیة فی بیروت ومن ثم فی سائر المناطق ، لاننا ضد الفراغ الامنی وبالتالي ضد ترك ایه منطقة من غیر قوة نظامیة شرعیة . ولكن القول بنزول الجیش لسد الثغرات الامنیة یبقی ناقصا اذا لم یشفع بتحدید القواعد التي تكفل نجاحه فی الاضطلاع بالمسؤولیات التي تلقى علی عاتقه ، خصوصاً وان الجیش لم یكن موفقا فی تنفيذ المهام العدیة التي اوكلت الیه فی الماضي . لذلك كنا نرى ان یراعى فی تكلیف الجیش جملة نقاط ، اهمها :

اولاً ، ان یشمل التکلیف منطقة بیروت برمتها ، لا ان یقتصر علی الجزء الغربی من العاصمة لمجرد ان هذا الجزء تعرض الی ما تعرض الیه نتیجة الاجتياح الاسرائیلی . وكنا نخشى ، اذا لم یراع هذا المطلب ، ان یؤدي ذلك الی تعزیز خطر التقسیم للعاصمة ومن ثم للوطن ، او ان یؤدي الی اخلال فی توازن القوى بین المتنازعیین علی نحو یهدد قواعد العیش المشترك فی هذا الوطن .

ثانياً ، فی اختیار الصیغة القانونیة الفضل لانزال الجیش ، كنا نرى ان یستبعد احتمال اعلان حالة الطوارئ نظراً لما یرتب علی هذا الاحتمال من محاذیر تطاول الحیاة المدنیة والسیاسیة ، ولا سیما ما یتعلق منها بالحریات ، علی ان تعتمد صیغة تكلیفه بمهمة من قبل المرجع السیاسی المختص فی الحکم .

ثالثاً ، كان یقتضي تحدید المهمة التي تسند الی الجیش علی نحو یضمن فاعلیته ، بدءاً بجمع أی مظهر من المظاهر المسلحة فی منطقة انتشاره وانتهاء بجمع السلاح من الجميع من غیر استثناء ، علی ان لا یسمح بوجود حواجز عسکریة نظامیة فی مجاورة حواجز حزبیة مسلحة كما كان حاصلًا فی بعض المناطق الشرقیة التي كان ینتشر الجیش فیها شكلاً وكانت السیطرة فیها فعلاً لمیلیشیا القوات اللبنانیة .

رابعاً ، نظراً الی ان الجیش اللبنانی ما زال یتكون من مجموعة ثكنات تتباين الواحدة منها عن الاخری باللون السیاسی ، فنجاح المهمة التي یتولاها الجیش كانت تتوقف الی حد بعيد علی حسن اختیار ضباط الوحدة العسکریة المكلفة وعناصرها من بین اولئك الذین لم یتورطوا فی الاحداث ولا تشوب ولاءهم الوطنی شائبة .

كان هذا ما قلناه فی حیثه . ولكن هذا لم یكن ما تم . فقد جاء رئیس جدید ، وأقحم الجیش بمهمة قهریة لم یكن من السهل محو آثارها فیها بعد .

حذرنا يومها من الانسياق وراء اوهام انتصار زائف او استغلال ظرف الاحتلال العابر . فذهب الكلام ادراج الرياح . قلنا في حينه (١٩٨٢/٧/١٠) :

اننا نعيش ظرفاً عصيباً للغاية ، يشعر فيه المواطن ، خصوصا في بيروت الغربية ، انه مهدد في حياته وكرامته واعصابه . ومن الطبيعي في ظل هذا الوضع ان يتطلع المواطن الى الخلاص ، ويبدو احيانا انه يطلب الخلاص بأي ثمن ، هذا مع العلم ان الخلاص بأي ثمن لا يكون خلاصا ، لان الثمن قد يكون مقدمة لتوريط الوطن والمواطن في أزمة جديدة في مقلب الايام .

لا خلاص حقيقياً الا في حلول تحفظ لكل المواطنين كرامتهم وتراعي تطلعاتهم وامانيهم . اما استغلال حال المأساة والضيق التي يتخبط فيها المواطن في بيروت الغربية ، كما كان يحاول البعض ، للعبور من خلالها الى فرض مواقف على حساب كرامة الآخرين وامانيهم وقناعاتهم الحقيقية ، وتصوير الواقع على انه اجازة لتغليب فريق على فريق ، فينطوي على الكثير من قصر النظر ولن يكون من شأنه حل الازمة وانما قلب صفحة من الازمة وفتح صفحة جديدة منها .

لقد كان يقال ان ازمة لبنان تعود في جذورها الى عقدتين ، عقدة خوف عند فريق وعقدة غبن عند فريق - فهل كان في تصور احد ان الازمة يمكن ان تحل بحصر العقدتين في فريق واحد ؟ . وكان ذلك ما حصل عن قصد او غير قصد .

كان استخدام الجيش ، او بالاحرى سوء استخدامه ، هو العرض . اما الجوهر فكان قد مُسّ بتصيب رئيس جديد على غير توافق .

كان من الذين رفعوا عقيرتهم محذرين من مغبة الوقوع في مثل ذلك الشطط . ولكن من غير طائل . فاذا كنا نضرس اليوم ، فلا نسي ان ذلك من حصرم الامس .

الامر لم يكن يحتاج الى كثير من الفطنة . فكل من يعرف الواقع اللبناني يدرك ان الاخلال بتوازن النظام عن طريق فرض رئيس فتوي النشأة والمشرّب ، والمسلك والمأرب ، هو الكارثة بعينها . فقد تبين هذه الحقيقة ، مثلاً ، الكاتب السياسي ستانلي ريد الذي كتب مقالاً نشرته صحيفة النيويورك تايمس الاميركية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨٢/٧/٩ ، نقلت بعض صحف لبنان مقتطفات منه في حينه ، انتقد فيه ما وصفه بتحالف الولايات المتحدة الاميركية مع قائد ميليشيا القوات اللبنانية بشير الجميل ، مسفهاً الرأي القائل ان هذا الاخير هو الشخصية المؤهلة لاعادة السلام والاستقرار والوحدة الوطنية الى ربوع لبنان اذا ما انتخب رئيساً للجمهورية . ووصف الكاتب بشير الجميل بأنه ماروني متعصب ليخلص من ذلك الى القول بأن تسلمه السلطة ، اذا تم ، لن يكون عاملاً استقراراً وسلاماً وانما سيؤدي الى نتائج هي عكس النتائج المتوخاة .

فهل صحيح ان الكاتب الاميركي كان يعي ما لم يكن يعيه اللبنانيون انفسهم من حقيقة واقعهم

السياسي ؟ ام ان الصحيح هو ان شهوة السلطة والتسلط كانت تعمي الابصار وتعطل البصيرة فتسوق الوطن والمواطنين الى التهلكة ؟ .

وحتى لا يبقى في الامر لبس ، توجهنا آنذاك (١٩٨٢/٧/٢٧) بكتاب مفتوح الى الشيخ بيار الجميل ، رئيس حزب الكتائب اللبنانية ووالد مرشح التحدي الشيخ بشير ، خاطبناه فيه ناصحين ومحذرين ومنذرين ، فقلنا :

« نحن اليوم جميعا على المحك بين ان نكون للبنان او نكون لانفسنا ، وفي مخاطبتك هنا أقول : اذا كنا اليوم على ابواب النهاية لمحنة ماحقة نعيش اليوم ذروتها بعد ثنائي سنوات من النزف الرهيب فان التاريخ سيسجل لماذا كانت هذه الحرب ، أمن اجل وطن ام من اجل حزب .

« سمعنا نجلك الشيخ بشير يقول ما معناه أن الوقت قد حان ليتحرر حزب الكتائب من عقدة العزوف عن تولي الحكم والاكثفاء بالمشاركة فيه ، وان سعيه الى الرئاسة الاولى هو تعبير عن الانعتاق من هذه العقدة . فاذا ذكرنا ان الكتائب ليست كل لبنان ، وان الكتائبيين ليسوا كل اللبنانيين ، وان مشروع الكتائب لا يعبر عن قناعات كل اللبنانيين ، اذا ذكرنا كل ذلك فكيف توفقون بين دعوتكم الى الوفاق ، وانتم ستكونون حتما طرفا فيه ، وبين سعي نجلك الشيخ بشير الى الرئاسة باسم الحزب ؟ هل تتوخون الجمع بين صفة الخصم وصفة الحكم (بفتح الكاف) في عملية الوفاق المنشود في المستقبل ؟

« قد تقولون لي أنكم تخوضون معركة ديمقراطية ، حيث الكلمة في النتيجة لحكم الاكثرية .

« أية ديمقراطية يا شيخ بيار في ظل احتلال اسرائيل لمساحات شاسعة من ارض لبنان ومحاصرة نصف عاصمته فيما يُسام اهلها الأباة الصامدون شتى انواع التنكيل والعذاب تحت وطأة الحصار الخانق ؟

« أية ديمقراطية يا شيخ بيار وقوات حزبكم الذي اعلن نجلك الشيخ بشير ترشيح نفسه باسمه تنتشر مع قوات الاحتلال في كل مكان دخلته ، حتى كاد احتلال الارض يتحول احتلالا للارادة .

« كنا نسمع منكم اصرارا على رفض القاعدة العددية والتغني بالتعددية ، فاذا بنا اليوم نسمع اصرارا على الاحتكام الى الاكثرية في مجلس النواب . هل تصرون يا شيخ بيار على حكم الاكثرية ولوجاءت تلك الاكثرية حصيلة للارهاب الذي يمارس على بعض النواب ؟ هل تصرون على حكم الاكثرية ولو كان في نتيجة هذا التحكيم الشكلي قهر للآخرين ؟ هل يعني اصراركم على الاحتكام الى الاكثرية هذه المرة ولو كانت مصطنعة قبولكم بحكم الاكثرية في كل شؤون المصير بعد اليوم وبالتالي تخليكم عن فكرة التعددية ؟ هذا مع التأكيد اننا نعتبر انتخابات الرئاسة هذه المرة شأنا مصيريا .

« لقد شهد لبنان انتخابات رئاسية في الماضي ، ولكنه لم يشهد معركة انتخابية حقيقية داخل المجلس النيابي سوى مرة واحدة منذ الاستقلال على ما نعلم (يوم انتخاب الرئيس سليمان فرنجية) ، فكانت طبخة الانتخاب تحضر خارج المجلس ليأتي الرئيس وليد اجماع او شبه اجماع بأصوات النواب داخل المجلس . فلماذا كان ذلك

الحرص على الاجماع في زمن كانت فيه حرية التعبير معافاة ولا يكون مثله اليوم ونحن في زمن تبدو فيه الارادة رهينة الارهاب ؟

« هذا ما نتمناه : اننا نتمنى ان نتعاون يا شيخ بيار مع نخبة مخلصه من وجوه المجلس النيابي في التفاهم على مرشح اجماع تلتقي حوله ارادات اللبنانيين من مختلف الفئات ويكون لجميع اللبنانيين من غير تفریق او تمييز ، وذلك انفاذا للوطن من مغبة الوقوع في منزلق الاصرار على فرض صيغة غالب ومغلوب تقضي على مرتكزات الوطن اللبناني ، وهذا في وقت لا غالب فيه من اللبنانيين في حقيقة الامر ولا مغلوب ، واننا على يقين من انكم ستتجاوبون » .

قرأوا كتابي المفتوح هذا ، وجاء ردهم في صفحة كاملة من جريدة « العمل » التي يصدرها حزب الكتائب اللبنانية تحت عنوان : ردود هادئة على اصوات حاقدة ، وذلك بتاريخ ١/٨/١٩٨٢ ، وقد شحنا ردهم بكل ما تيسر من اراجيف ورموني بالحقد والتعصب والتضليل والفئوية والتبعية والمركبات النفسية وما الى ذلك .

اما ردي على هذا الرد فهو في واقع التمزق الذي نعيش اليوم ، والذي جاء مصداقا لما حذرنا منه .

كان كل هذا الكلام يتعلق بالشيخ بشير الجميل اذ رشح نفسه للرئاسة . وقد استتبع اغتيال الرئيس المنتخب انتخاب شقيقه الشيخ امين . وقد حظي في ظل ما ساد من اجواء بما يشبه الاجماع داخل مجلس النواب وخارجه . وكان الرهان معقودا على اعتداله السياسي بالقياس الى شقيقه الراحل . ولكنه في الواقع لم يستطع ان يبقى ، كما يجب ان يبقى رئيس الجمهورية ، فوق الصراع . فبقي حتى اليوم الى حد ظاهر في جانب منه ، واحيانا كثيرة على رأس طرف فيه . فبقيت البلاد في ظل حكمه نهياً لمزيد من التمزق والتشردم .

صباح ١٩٨٦/١٠/٥ طلعت علينا الصحف نبأ له دلالاته على هذا الصعيد . يقول النبأ ان رئيس الجمهورية تفقد مواقع الجيش على خطوط التماس في بيروت والضواحي .

سليم الحصن بيروت في ٧/١٠/١٩٨٦ .